

الملك الظاهر

زيارة ضريح بدمشق

الأستاذ أبي أسامة

هذه دمشق قد بدت تطل بوادها عليك من وراء عقبة
دسر ، فإذا بالمرجة الخضراء تغمرك بروحها كما تغمر الأرض
مياه بردى المندفعة ، فتشمر بأنك تدخل عالم لم يكن غريباً
عنك في يوم من أيام حياتك
بدأت أستمض ذكريات التاريخ الذي هو جزء منا ،
وأحدث عنها ، ودمشق عاصمة وثغر ورباط للعلم وموئل للفرز
الثالث وللجد القادم ، كلما دخلتها شعرت بأن مصر تعيش
في دمشق ، كما أشعر في القاهرة بأن الشام تعيش بمصر . أنظر
إلى مساجد المصمطين : تجمد وحدة البناء والزخرفة ، ووحدة
التفكير والروح . أنظر إلى مأذنة الجامع الأموي الواقعة على يمين
مدخله ، ألا تذكرك بمآذن الأزهر بالقاهرة ؟ وانظر إلى مأذنتي
التوروي وقايتباي بمصر ، ألا تذكرك بمآذن الشام ؟

وأذكر أنني خرجت يوماً من الجامع الكبير فوقفت على قبر
صلاح الدين وواصلت سيرى إلى المجمع العلمي ومنه انجذبت إلى
الظاهرية ، فإذا أنا أمام ما سطرته يد الزمن السالف الغابر لأقرأ
ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بإنشاء هذه القبة المباركة
والمدستين المعمورتين المولى السلطان الملك السعيد أبو المعالي
محمد بركة بن السلطان الشهيد الملك الظاهر والمجاهد ركن الدين
أبو الفتوح بيبرس الصالحى أنشأها لدفن والده الشهيد وألحق به
عن قريب فاحتوى الضريح على ملكين عظيمين ظاهر وسعيد .
أمر بإتمام عملها السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون
الصالحى قسيم أمير المؤمنين خلد الله سلطانه »

هذه دار العتيق من رجال الدولة الفاطمية المصرية ، بنيت
منذ تسعة قرون ولا تزال حجارته العتيقة ظاهرة وفاسل البناء
تلسه بين القديم وما استجد في أيام السعيد . ارجع إلى مدخل
الظاهرية وانظر إلى جمال الباب وتناسقه وإلى المقرنصات بسقفه ،
إنه لتحفة من ريادة القرن السابع الهجرى فإذا اخترقت الباب
فاتجه يمينا إلى القبة

هنا ضريح الملكين الشهيد بن تحت قبة قد ازدادت جدرانها
بالفسيفساء قلداً راسمها جدران المسجد الأموي ورسومه ، فإذا
انجذبت إلى الحراب تجده تحفة أخرى من زخرفة هذا المصر يحاز

وتضجلك منى شيخه عيشية كأن لم ترى قبلى أسيراً يائياً
قلت : مهلاً فإنى أنحدر من تاريخ طويل من المجد والبطولة ؛
وليس فى وسعنا نحن أبناء هذا الجبل الزاحف أن ننسأه أو نقص
الطرف عنه ، بل إنى لأشعر بالفخر بملأ نفسى ، نعم لأنى أشعر
بالبطولة تملأ جوانب تاريخي
قلت : ومن هم أبطالك ؟

قلت : كنتجوم السماء لا نملك لهم عدداً
قلت : حدثنا عن النفس القوية عندكم التى لا تربط حظها
بما تؤمله من مساعدة النير لها ، ولا تعتمد على أهواء الناس
وآرائهم وأحكامهم ، وإنما تعتمد على عملها وحده الذى يخلق لها
الحظ الذى تستحقه والذى هو جدير بها

قلت : اخترت الملك الظاهر بيبرس ، إذ هو فى نظرى من
أولئك الذين يتمددون على القوة الكامنة فى شخصيتهم ، بل
من الذين اتخذوا من أنفسهم قوة منظمة مدركة للعوامل المحيطة
بهم ، فوضع كل عامل فى مركزه الخاص به ، ثم جمعها وحشدها
ووزعها ، فاستعملها للوصول إلى الأهداف التى قصد تحقيقها ،
وكان النصر حليفه وطوع بئانه

قلت : آتينا من بعض أخباره
قلت : لست بمؤرخ ، وإنما سأحاول أن أرسم التاريخ
وأخرجه صورة حية :

نخرج فى سيارة من بيروت إلى دمشق ومضى صديق ، وكان
ذلك فى صيف ١٩٤٢ ، فإذا أنا أرتل قول القائل :

لئن مايت عيناى أعلام جلق وبان من القصر المشيد قبابه (١)
تيقنت أن البين قد بان والنوى نأى شحطها والميش عاد شبابه

(١) هو للملك الناصر أبو الظفر داوود صاحب الكرك - راجع
النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦٢ توفى سنة ٦٥٦

بالصدق الملبس في أعلاه وجوانبه نجاء كباطار ركب حول المومنين . اقرأ الآية التي كتبت على اليمين : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله » وعلى اليسار : « وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » أما ما تحت الفسيفساء من الجدران فقد ركب عليه الرخام المجزع ، اختلف صديقان في أصله أهو من الشرق أم من الغرب .

ووقفت أمام هذا الضريح وقد غمرني نفحة فانتبهت أمام رهبة الراقد كأني أتاني الأمر ممن كانت بيده مقاليد آلاف الرجال وأعنة آلاف الخيل ، وأحيت رأسي احتراماً وإجلالاً إذ هنا الملك الظاهر من كان اسمه يدوي في أرجاء ممالك ثلاث قارات من العالم المعروف في عصره . وصرت أمامي أدوار البطولة والمجد التي أوحى إلي هذه البقعة الطاهرة .

قد مر بمخيلتي في تلك اللحظة لفظة من الدهر تملأها الثقة بالنفس وتمثل الإرادة القوية أنشرها لاعتقادي ووثوقي في أن الأمة التي تحترم نفسها هي التي تشيد بأبطالها ، وحينئذ تستحق احترام العالم التمدنين وتقديره لها .

كان عصر الظاهر عصرًا فذاً في التاريخ ماجت فيه الأمم والشعوب والجماعات ، وتمخضت أيامه بالحوادث الجسام والممارك الكبرى ، وقذفت فيه الأقدار بقوات هائلة من الخير والشر معاً ؛ وكان هذا الركن من العالم الذي نبش فيه الآن ، يواجه أشد الأخطار ويمتحن بأقوى المحن التي مرت في تاريخه — فهو لم يكن قد أفاق بعد من النكبة الكبرى والصدمة الروعة التي أصابته في بندان يوم استباحها هولاء سنة ٦٥٦ وكان صدى استشهاد الخليفة العباسي لا يزال يهز النفوس ويدوي في الدنيا

كانت النكبات تتوالى من ذات اليمين وذات الشمال ؛ وهذا العالم العربي يعاني الشدة أثر الشدة ويقارع ويكافح ضد الفناء أمام قوات تفوق طاقته وقد انسابت عليه من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق ، والناس في دهش يتساءلون أأذنت الساعة ؟ لم استعجلهم ربهم بالعذاب ؟ « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيماً ويذيق بعضكم بأس بعض ، أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » [قرآن كريم : الأنعام]

إن ما أصاب الشرق العربي في ذلك العصر الرهيب كان من قبيل الانقلابات الأرضية التي تثيرها عوامل الطبيعة فتدك الأرض دكا وتهبط على أثرها المحيطات وتظهر بعدها القارات ، أو كأعاصير هائلة فيها برق ورعد وظلمات ، ثم يمتصها طوفان يأتي على الأخضر واليابس ويهدم أحسن ما بناه الإنسان وما أخرجه العقل البشري . كان هذا حال أجدادنا في القرن السابع الهجري حينما قذفت عليهم الأقدار بتيارات متعاقبة من جماعات البشر تهاجمهم في عقر ديارهم فتخرجهم منها ، وتنتزع من أيديهم قلعة أKBادهم وتهدم وتحرق وتخرب وهم لا يستطيعون لها دفعا إلا بقدر ما في أيديهم من قوة وصبر

في وسط هذا الوقت المعصيب والليل الدلهم سطع في السماء نجم الظاهر ، وظهرت على مسرح شرقنا شخصيته الجبارة فقال عنه المؤرخون في عصره « هو الأسد الضاري كان شهماً شجاعاً أقامه الله للناس لشدة احتياجهم إليه في هذا الوقت الشديد والأمر المسير »^(١)

ولقد قامت قيامة الدنيا ، وكشر إليه المارك من أنيابه ، ولعب الرجال والأبطال أدوارهم ثم انتهت القوى الجامعة التي أنارتها الطبيعة فألفت قيادها إلى رجل قد اختارته العناية من مصر وهيأته بمصر ، فإذ إن رأته الناصر الهامجة حتى خنفت لدى طلوعه ، ثم خبت فسلمت إليه طائفة غفارة

وأطلت شخصية الملك الظاهر على القرن السابع الهجري ، فإذا هي تكشف ما حولها وتظهر واضحة براءة قوية وكأن إرادة الملايين التي تمثلت في إرادته وآمال الناس التي تحققت على يديه وأكبرت عمله قد تجمعت في بقعة واحدة وأخذت تنشد بصوت واحد في مواجهة عالم بأكله :

« إني أرفع يدي إلى السماء وأقول : حي أما إلى الأبد »^(٢)
(أبصر أسامة) (ينبع)

(١) راجع النصوص في البداية

(٢) هذه الجملة من سفر التثنية

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجملة ٢٢ - ٧ - ٩٤٢ في القضية رقم ١٤٦٠ سنة ١٩٤٢ جنح عسكرية ضد حسن طي الجيزاوي بالحبس ثلاثة شهور مع العزل والمصادرة والتعليق على مركز البوليس والفقر على مصاريفه ليومه نقاشاً بسر أزيد من المحدث بالتسمية